كبوات الحرب

إن التحقيق الذي قام به الكونجرس الأمريكي فيما يخص أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م بيّن بوضوح مواطن الخلل في الأجهزة الأمنية خاصة غياب المترجمين الأكفاء في اللغة العربية والذي كان بإمكانهم فك شفرة الرسائل المعترضة قبلها بعدة أشهر. كانت تتوافق أحادية لغوية مخلة حتى في وسط أجهزة الدولة، مع التوجه الأحادي السياسي للحكومة، الذي كان في أسوأ أوقاته بصورة وسطية-أمريكية مفرطة تنفي كلياً التنوع اللغوي للتهديدات المحتملة.

في تقرير لجنة تحقيق في عام ٢٠٠٣م المرفق حول نشاطات وكالات الاستخبارات الأمريكية كانت أصابع الاتهام تشير لثلاثة مواطن تقصير فادحة:

أولاً، الوكالات الأمنية ليست مهيأة للتعامل مع أحجام هائلة من المعلومات في اللغات الأجنبية.

وبعد ذلك، هناك كمية كبيرة من الوثائق الحساسة وأحياناً جوهرية بانتظار ترجمتها أو بكل بساطة تصنيفها.

وأخيراً، ليس هناك تقريباً ضباط مؤهلون لتحليل وثائق حساسة مكتوبة بلغات شرقية.

قيّم رئيس لجنة التحقيق المتعلقة بنشاطات الاستخبارات مستوى التأهيل اللغوي للاستخبارات الأمريكية بنسبة ٣٠٪ فحسب.

كما قيّم أعلى مسؤول اللغات في وكالة الأمن الوطني عدد الخبراء الذي يتمتعون بمهارات لغوية ممكن الاستفادة منها بنسبة ٣٠٪.

في عام ٢٠٠٣م، صرحت رئيسة مدرسة لغات وكالة الاستخبارات المركزية إلى لجنة التحقيق بأن الوكالة لم تكن البتة في حالة شن "الحرب ضد الإرهاب" مع مصادر

قليلة بهذا القدر على المستوى اللغوي. حتى لقد حددت في تقريرها بأنه لم يكن هناك أي خطة استراتيجية فيما يخص المهارات اللغوية في وكالة الاستخبارات المركزية.

بعد مرور ثلاث سنوات وحرب إضافية وهي حرب العراق، في شهر أكتوبر رفضت وكالة الاستخبارات المركزية الكشف عن عدد الأفراد الفاعلين في اللغة العربية. غير أن أعضاء قدامى متقاعدين أكدوا في تلك اللحظة أن الأفراد الأكفاء في العربية يعدون على أصابع اليد بالرغم من كثرة أفراد الوكالة (٣٠٠,٠٠٠ ألف). وذكروا أنه في الثمانينيات لم يكن إلا فرد واحد من وكالة الاستخبارات المركزية يتكلم العربية بطلاقة في بيروت وفي عز الحرب الأهلية في لبنان.

لتبرير هذه التقصيرات الصارخة والمضرة بالأمن الوطني، صرح أحد المسؤولين رفيعي المستوى في وكالة الاستخبارات المركزية "بأن تأهيل شخص على قيادة طائرة مقاتلة أيسرمن تدريبه على أن يتكلم العربية بصورة صحيحة".

من جهته كشف مكتب المباحثات الفيدرالية المكلف بالتحقيقات ضد الإرهاب في الأراضي الأمريكية أن هناك ٣٣ محققا فحسب من أصل ١٢,٠٠٠ ألف محقق في الوكالة لديهم "معارف بالعربية".

كيف يتم تفسير مثل هذا القصور إذا لم نقل إنه من تركة الماضي؟ بكل اختصار هذا للتذكير بالتاريخ.

حنين الجيل الثاني الياباني Nisei

أحد أخطاء الأمريكيين الفادحة أنهم اهتدوا بما قد حدث في اليابان في أثناء الحرب العالمية الثانية لمعرفة العراق، بحجة أن الأمر في كلتا الحالتين يتعلق"بالشرق". كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يستقبلهم العراقيون بحفاوة فحسب بصفتهم محررين للبلد،

بل كانوا يعتقدون أيضاً أن العراقيين يقبلون مثل اليابانيين "بقانون المنتصر". إذ نسوا صعوبة الشرق الأوسط وخصوصية "الروح العربية"، ناهيك عن ظروف حرب العراق المختلفة جذرياً.

بشأن التدخل نفسه، فإن القادة العسكريين الأمريكيين كانوا يعرفون جيداً صعوبة الاحتلال ومن ثم نشر الاستقرار في بلد مثل العراق دون أن يتوفر عدد كافٍ من معاونيين يتقنون لغة سكان البلد، وثقافتهم لكنهم يعتقدون أن الحالة العراقية لا تختلف اختلافاً كبيراً عن التجربة اليابانية مع الجيل الثاني الياباني الشهيرNisei. غير أنه لم يكن من ذلك في شيء.

إن الاسم Nisei يطلق على الأمريكيين من أصول يابانية والذين شاركوا في استعمار اليابان بعد الحرب العالمية الثانية وهزيمة قوات المحور. وقد كان جلهم مترجمين، إذ اضطلعوا بدور جوهري في الانتصار الأمريكي ومن ثم في توطيد استقرار البلد.

بفضل أرشيف الاستخبارات الأمريكية المبعثرة من بداية السبعينيات، نعرف الكثير عن هؤلاء الأمريكيين من أصول يابانية Nisei: تجنيدهم، وظائفهم، وأعمالهم في الحرب، وأمجادهم وانتكاساتهم. ويبين التمعن في هذه القصة السرية أن الأمريكيين حاولوا إلى حد ما تكرار الحلقة اليابانية. لكن دوى جدوى.

وهكذا، نعرف حق المعرفة أنه قبل هجوم بيرل هاربو في السابع من ديسمبر ١٩٤١م، قامت فرقة من الجيش الأمريكي متمركزة على الساحل الغربي للولايات المتحدة بإنشاء برنامج سري للتجنيد والتدريب العسكري للعسكريين في اللغة اليابانية، تنبأً لحرب ضد اليابان. وكانت قاعدة هذا البرنامج المصنف "سري للغاية" في ذلك الوقت، في بريزديو في مونتيري الواقعة في ولاية كاليفورنيا، ولم يعمل به إلا في بداية

الأول من نوفمبر عام ١٩٤١م. وقد بدأ مع أربعة أساتذة أمريكيين من أصول يابانية، (أمريكيين- يابانيين) حسب المصطلح العسكري في تلك الوقت.

كانت تضم الدفعة الأولى ٦٠ طالبا: ٥٨ Nisei (أمريكيين- يابانيين)، وأمريكيين اثنين ناطقين باللغة الأم. تكون كلمة "قوقازي" هي الكلمة المخصصة لهم. كانت مدة التأهيل ٦ أشهر، يحصل ٤٥ طالبا في نهايته على شهادة من بريزيديو سان فرانسيسكو، ويعينون في وحدات مختلفة يعملون بها لصالح الاستخبارات الأمريكية.

تم وضع برنامج مماثل للعراق وذلك قبل سنة تقريباً من الاجتياح عام ٢٠٠٢م مع حملة تجنيد قوية ووضع مسار محدد، "دائماً في بريزيديو مونتيري". وأسوة بتجربة Nisei، كان جل "المدرسين" المدربين والطلاب" من المجتمع العراقي المقيم في الولايات المتحدة منذ حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١م، والذي أصبح أفراده في غضون ذلك مواطنين أمريكيين.

أمام طلب الجيش والأجهزة الأمنية المتزايد، خاصة مع إنشاء إدارة الأمن الداخلي، امتد هذا التجنيد للأمريكيين- العراقيين منذ عام ٢٠٠٣م إلى كافة المواطنين "أمريكيين- عرب"، باستبعاد بعض الدول مثل سوريا أو السودان على اعتبار أنهما يمثلان خطراً كبيراً. وبعد ذلك، سرعان ما استعانت الشركات الخاصة بعقد من الباطن مع البنتاجون بـ"لغويين" غير أمريكيين.

هذا هنا أول فرق مع تجنيد الـNisei اليابانيين، والذي بقي في ذلك الوقت تحت سيطرة كاملة للجيش الأمريكي، والتي لا تتعلق في نهاية المطاف إلا بعدد محدود من الأشخاص. في الحالة العراقية، لم يعد يتقن العسكريون لا إجراءات التجنيد ولا عملية التأهيل، ولا حتى عملية سير وظيفة المترجمين التي يستخدمونها، لأن هؤلاء كانوا رسمياً مرتبطين بمؤسسات خاصة بمراتب وظيفية داخلية.

أما الفرق الثاني الملحوظ مع تجربة Nisei اليابانيين فيتصل بتطور الأحداث التي تخصهم، والمختلف بشكل ملحوظ مع فارق "اللغويين" المجندين في العراق.

في شهر فبراير عام ١٩٤٢م، وقع الرئيس فرانلكين روزفلت، بعد مرور ثلاثة أشهر على دخول الولايات المتحدة الحرب مع اليابان، أمر التنفيذ رقم ٩٠٦٦ القاضي بتهجير واعتقال جبري في مخيمات لـ١٢٠,٠٠٠ ألف مواطن من أصول يابانية متواجدين على الأراضي الأمريكية. وكان يُنظر إلى هؤلاء على أنهم "عملاء فعليون للعدو"، وتم استبعادهم بكل تأكيد من وظائف الدولة العسكرية والإدارية.

غير أنه في غضون ذلك، أثبتت أول دفعة من طلاب Nisei، الحاصلين عل شهادة من بريدزيو مونتري، قيمتها في الميدان وبينت إخلاصها للجيش الأمريكي. وقاد هذا النجاح العسكريين إلى تغيير موقع برنامج التأهيل من مخيم الاعتقال الياباني في ولاية مينيسوتا في نهاية شهر مايو عام ١٩٤٢م ليكونوا مباشرة على اتصال مع مجنديهم المتمكنين.

وهكذا، جعلت الأشهر الأولى من الحرب ضد اليابان العسكريين يدركون أهمية "اللغويين" من أجل الانتصار وخاصة من أجل القيام بأعمال التقصي عن الأخبار في الميدان. بمثابة نتيجة فورية، تم وضع برنامج التأهيل تحت سلطة وزارة الحرب المتلهفة على فتح مدرسة مختصة في الأول من شهر يونيو عام ١٩٤٢م، وهي المدرسة العسكرية لخدمات التقصي اللغوية (MISLS).

في خلال عدة شهور، توظف هذه المدرسة مئات Nisei في مخيمات الاعتقال المنشئة في الجوار. غير أن العملية تظهر شاقة؛ حيث تبين أرشيفات الجيش أن من أصل أوائل المرشحين، ٣٧٠٠ رجل خضعوا للاختبار، تم قبول زهاء مائة فقط من العسكريين، أي ما يعادل ٣٪ من المرشحين. فالآخرون لا يتكلمون اليابانية بطلاقة بما

يكفي لكي يلتحقوا ببرنامج تأهيل مكثف ذي طابع عسكري. في الواقع، تبين تقارير الجيش أن يابانياً واحدا فقط من أصل ١٠ يتمتع بمعارف يمكن الاستفادة منها على المستوى اللغوي، وليس هناك أي شخص لديه معارف في مجال المصطلحات العسكرية والإجراءات الأمنية.

وهذه نقطة بدهية مشتركة مع المجندين الأمريكيين من أصول عراقية. وقليل جداً من كان يعرف العربية معرفة جيدة ليكون مفيداً لإدارة التحالف المؤقتة. والذين كانوا يعرفون لهجات العراق لم يكن لديهم أي معرفة في المجال العسكري، فهم عامة هاربون من الجيش العراقي، وأن الذين كانوا يتكلمون العربية بطلاقة أو الكردية كانوا يحملون أيدلوجيا عن جهة أو عن جهة أخرى، فهم إما بعثيون مناصرون للنظام المنزوع أو إسلاميون متعاطفون مع ابن لادن. ولهذا السبب، أسفرت حملة التجنيد التي قامت بها البنتاجون في عام ٢٠٠٣م عن نتائج مخيبة للآمال مثلما كان الحال لحملة أوائل Nisei (٨ من أصل ١٠٠٠ تقريباً).

تمخض عن هذا الإقرار بالنقص قرار اللجوء إلى المؤسسات الخاصة المختصة في توفير"الخدمات اللغوية"، ولكن النتيجة لم تكن أفضل، لأن الشغل الشاغل لهذه المؤسسات الخاصة كان الحصول على ما أمكن من أرباح في وقت استمرار الحرب، دون الاهتمام بنوعية المجندين ولا بتأهيلهم أمام الطلب الطارئ.

على النقيض من ذلك، التحق Nisei، في دورة تأهيلية إلزامية وصارمة لفترة لا تقل عن ستة أشهر، في حين أن حرباً عالمية تضع أوزارها.

واليوم نعرف أن أكثر من ٦٠٠٠ أمريكي ياباني تم تأهيلهم في MISLS بين شهر يونيو عام ١٩٤٢م وشهر يونيو عام ١٩٤٣م، واكتسبوا تأهيل جيداً.

ومن ناحية أخرى، كان Nisei مبعوثين إلى المحيط الهادي، وكانوا فيه تابعين لوحدات استخبارات عسكرية مختلفة، من ضمنها ما اشتهر بـ"جهاز المترجمين الحليف".

كانت مهمات هؤلاء المترجمين خلال الحرب العالمية الثانية مختلفة ومتنوعة: ترجمة وثائق مكتوبة باللغة اليابانية، ومساعدة العسكريين في استجوابات سجناء الحرب، وفك شفرات الجيش الياباني، ومرافقة العمليات الخاصة في الميدان لإقناع جنود الإمبراطور بالاستسلام للجيش الأمريكي، والمدنيين اليابانيين في الانضمام لحملات دعم مشاريع الاستطلاع، إلخ.

غير أنه كان هناك حدث جلل: كان Niesi يحصلون على رسائلهم النبيلة بفضل ترجمة وثيقة جوهرية للحرب العالمية الثانية، تعرف باسم (خطة Z). فهذه وثيقة مشفرة وفي غاية السرية للقيادة اليابانية تم اعتراضها من قبل الأمريكيين دون أن يدرك اليابانيون ذلك، وسمحت بهجوم مضاد مفاجئ في جنوب المحيط الهادي، و كان هذا الهجوم حدثاً حاسماً للحرب.

وفي ذلك الوقت، كان كل القادة، مثل العقيد ماشبير، يتذكرون في ذاكرتهم المتعلقة بالحرب بأنه لولا وجود Nisei لم يكن بالإمكان كسب الحرب.

وحسب تقرير الجيش الأمريكي الذي فصل في نتائج جهود الحرب في عام ١٩٤٥م، فإن Niesi قاموا بترجمة أكثر من ٢٠,٥ مليون صفحة خلال الحرب العالمية الثانية

وبالطبع، فإن عدد "الصفحات" التي قام الجيش الأمريكي باحتجازها أو بكل بساطة التي قام بجمعها في أثناء استيلائه على بغداد ومن ثم الإدارات في بقية البلد أكثر أهمية من هذا الرقم، لكن لم يكن عمل المترجمين الأمريكيين- العراقيين مخصص

لترجمة هذه الوثائق، ولم يستفيدوا من العمل الباهر المماثل لما قام به Nisei. بل على النقيض من ذلك، كانت الكبوات لا تعد ولا تحصى وكان لها تأثير كبير.

خلافاً للعراق، كان هناك في الحالة اليابانية مرحلتان متباينتان ومتميزتان بكل وضوح على مستوى تأهيل الجنود Nisei: المرحلة الأولى هي مرحلة الحرب مع التركيز على اللغة العسكرية، وأما المرحلة الثانية هي مرحلة احتلال البلد مع التركيز على الثقافة اليابانية. عمل أكثر من ٥٠٠٠ من الجنود Nisei بعد نهاية الحرب، في إعادة إعمار اليابان ونشر الديمقراطية فيه، ويعملون مثل "الجسر"، وهذه الصورة التي يستخدمها العسكريون في ذاك الوقت، بين قوات الاحتلال الأمريكية والسلطات المدنية اليابانية، بل أيضاً بين الجيش والسكان.

وكان هؤلاء Nisei يمثلون النابض الرئيس، فيعتنون بجمع المعلومات على الأرض كما يعتنون بنزع السلاح والتعليم على حد سواء. وكما أنهم شاركوا بكتابة الدستور الياباني وبتأهيل قوات الشرطة.

وعلاوة على ذلك، فقد كانوا بعد الحرب المترجمين الفوريين المعتمدين لدى المحاكم العسكرية التي تحكم بجرائم الحرب للعسكريين اليابانيين، الجرائم التابعة لـ"فئة أ"، أو "فئة ب"، أو "فئة ج". وتبين تقارير تلك الفترة أن Niesi كانوا في الواقع مساعدين للقضاء وللشرطة، إذ كانوا يتصرفون وكأنهم "صانعو سلام".

حاول الأمريكيون جاهدين إعادة هذه التجربة الناجحة في العراق وذلك بإشراكهم للمترجمين في معظم الأعمال وقرارات إعادة الأعمار، ولكن هذا باء بالفشل المتكرر. إن أسباب ذلك عديدة، لكن الأهم منها يكمن في ضعف مستوى التأهيل في الأساس وفي عدواة السكان للعراقيين للمغتربين، الذين يعدون "أجانب" و"عملاء".

هناك على مستوى النظرة العامة بون ملحوظ بين التجربتين اليابانية والعراقية. في الأربعينيات، كان في الولايات المتحدة مثل هذا البغض نحو الأمريكيين من أصول يابانية عندما أُرسل هؤلاء إلى مخيمات احتجاز وتم تصنيفهم على أنهم "أجانب أعداء"، حيث كانوا خونة أقوياء.

في خضم الأحداث، كان هناك فئتان من الأمريكيين- اليابانيين: Niesi وهم اليابانيون المولدون في الولايات المتحدة وليس هناك أي صلة مع اليابان غير صلة آبائهم أو أجدادهم، والفئة الثانية Kibei وهم الأمريكيون المولدون في اليابان وتربوا فيها، ولكنهم هاجروا فيما بعد إلى الولايات المتحدة. وقد عاشت هاتان الفئتان صراعاً طائفياً عنيفاً.

بالرغم من أنه كان يشتبه في أفراد الفئتين أنهم "خونة" و"مؤيدون لليابانيين"، غير أن kibei كانوا مكروهين أكثر من Nisei، في حين أنهم كانوا من جهة أخرى أكفأ بكثير وأكثر فائدة للقوات الأمريكية؛ نظراً لمعارفهم المعمقة باليابان مسقط رؤوسهم على كل الأصعدة: الجغرافي واللغوي والثقافي.

فيما يخص العراق، نلاحظ نفس ظاهرة النظرة العامة والتصنيف العنصري. عند مسؤولي توظيف "اللغويين"، هناك أيضاً فئتان عراقيتان: من جهة فئة "الأمريكيين- العراقيين" الذين لهم اعتبارات أفضل عند الجيش ويقبضون رواتب مجزية ولكنهم لا يعرفون جيداً الواقع العراقي، اللغة وثقافة البلد، ومن جهة أخرى، هناك فئة "العراقيين المحليين" الذين يتقاضون رواتب ضعيفة ويُعاملون بحذر وبكياسة، ولكنهم يعرفون حق المعرفة الأرض والمجتمع العراقي.

لذلك، علاوة على الشك والحذر الأمريكي، يشتبه العسكريون بالمترجمين العراقيين "بتواطئهم مع العدو"، ويكره العراقيون هؤلاء "المترجمين المحليين" كرهاً

شديداً، ويعدونهم من أسوأ الخونة من بين عملاء قوات الاحتلال. ومن هنا جاء وصفهم باعتبارهم أهدافا أولية يتعرضون للقتل المستمر من قبل الثوار.

أما Nisei اليابانيون فلم يعرفوا الانتقام من الشعب ولا من الثوار في بلدهم الأصل. ولم يُستهدف من حولهم ولا عوائلهم لأعمال انتقامية. بالمقابل، فإنهم جربوا إذلال معتقلات الاحتجاز في الولايات المتحدة، واستخفاف السلطة العسكرية بهم، والعزل الإجباري، والتهميش المستمر، والاحتقار والحقد من السكان الأمريكيين. والأدلة على ذلك دامغة.

أما Kibei بشكل خاص، وهم الأمريكيون المولدون في اليابان، فإنهم عانوا كثيراً. وعلاوة على الظلم الذي كانوا ضحيته، فإنهم تعرضوا لمضايقات وسوء معاملة من قبل أبناء جلدتهم اليابانيين؛ لأن مجتمعهم في الولايات المتحدة كان يعدهم خونة. وبالفعل فإن بعضهم أُرسل إلى اليابان لمساندة العسكريين الأمريكيين في الاستجوابات التي كان يخضع لها آباؤهم الفعليون، وكان هذا ينُظر له نظرة سيئة من الجهتين من المحيط الهادي. وقد تكررت نفس الظاهرة في موضوع الشرق الأوسط بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م.

متلازمة غوانتانامو

إن معتقل غوانتانامو الذي كان يُستخدم في استجواب "المناضلين الأعداء" المقبوض عليهم في أفغانستان، طرح الإشكالات الأولى في مجال وطنية وأمانة "اللغويين العرب". ومنذ عام ٢٠٠٢م، تردد الصحافة الأمريكية "أخطاء خطيرة"، في طريقة الاستجوابات، وحتى تردد "حالات خيانة". كان يشتبه بالعديد من المترجمين الذين

وظفتهم البنتاجون بصورة سريعة لمساندة الجيش الأمريكي في استجواباته "بالتخريب"، و"بالتواطؤ على الإيذاء" مع أفراد القاعدة المحتجزين في المعتقل.

في خضم الأحداث، أصبح المترجمون هدفا أولياً تتحرى عنه أجهزة الأمن الأمريكية. فهم كانوا أول المشتبه بهم بالإرهاب، وعدد كبير منهم اتهموا على أنهم "أفراد من القاعدة متسللين"، وذلك بالاستناد أحياناً على معلومات منقولة وتقريبية.

علاوة على ذلك، فقد كانت الترجمات السيئة التي تستخدم دليلاً ضدهم متوقعة كلياً؛ نظراً للغياب الكلي للتأهيل الأكاديمي ولكل تجربة في مجال اللغات عندهم. ولكن أجهزة الأمن المنزعجة من الصحافة، كانت متمسكة في النهاية بمواصفات من نوع : "عميل مزدوج"، بل حتى "خائن حقيقي"، فهما فكرتان سببتا خسائر فادحة في غوانتانامو وفي العراق على حد سواء.

في عام ٢٠٠٦م، كان تقرير الاستخبارات الأمريكية عن العراق يتأسف في نتائجه لأن جمع المعلومات الموجهة للعسكريين في أماكنهم تم تنفيذه في العراق عن طريق أفراد كانوا في الأصل "مسؤولي إعاشة للعسكريين، وسائقي سيارات أجرة". ويبين التقرير العلاقة مع الوضع في غوانتانامو ويُذكر بحدوث ثلاثة اعتقالات لـ"لغويين" اُتهموا بالتجسس وبتعطيل الاستجوابات.

تتوخى أجهزة الأمن الأمريكية خصوصاً مرشحين من الشرق الأوسط يريدون الالتحاق بمكتب التحقيقات الفيدرالية أو بوكالة الاستخبارات المركزية. وهكذا، رُفض العديد من ملفات المؤهلين من أصول سورية وذلك "للشك في الدوافع"، بينما كانوا مواطنين أمريكيين بمعنى الكلمة.

انتشر مرض التشكيك تدريجياً عند إدارة بوش حتى وصل إلى كافة أجهزة الدولة، والتي بدأت ترى في كل شخص من أصل عربي أو من دين الإسلام إرهابيا

بمقدوره فعل كل شيء. والأمثلة على ذلك لا تُعد ولا تُحصى، غير أن الأمريكيين من أصول مصرية كانوا هم الأكثر تأثراً.

بعد فتح معتقل غوانتانامو، التحق في الحقيقة عدد من الأمريكيين- المصريين بصفوف الجيش الأمريكي. لذلك، اضطروا لإجراء اختبار القبول في مدرسة الاستجوابات العسكرية، التي كان مقرها في مدينة فورت هوشوكا في ولاية أريزونا، وذلك لكي يصبحوا "مساعد محقق".

بعد ذلك، عملوا مترجمين في قاعدة غوانتانامو. إذ كان هناك أكثر من ٧٠ مترجما شاركوا في استجوابات "المحاربين الأعداء" كان بعضهم من أصول مصرية أيضاً... ومن هنا أتت حالات "الاتفاق على الإيذاء مع العدو" الآنفة الذكر.

بيد أن هؤلاء المترجمين يجاهرون بعملهم في غوانتاناموا حتى بداية حرب العراق، وبعد ذلك اختار عدد كبير منهم الالتحاق بالجيش الأمريكي في الخليج. واستمر الآخرون بالعمل لصالح أجهزة الأمن في الولايات المتحدة.

تعد حالة المدعو محمد يسري الأمريكي الجنسية من أصل مصري حالة مفيدة في هذا الشأن، إذ كُتب عنها الكثير في أمريكا الشمالية.

أسطورة العدو الداخلي

محمد يسري مترجم فوري كان يعمل في التسعينيات لصالح محكمة المقاطعة الجنوبية لنيويورك. غير أنه في شهر فبراير عام ٢٠٠٥م، اُتهم بقيامه بمؤامرة إرهابية، وفي شهر أكتوبر حُكم عليه بالسجن المشدد لمدة سنه وثمانية أشهر لدوره بقضيه الشيخ المشكوك به عمر عبدالرحمن.

إن عمر عبدالرحمن إمام مصري كفيف اُتهم في عام ١٩٩٦م، بالتخطيط لاعتداءات إرهابية ضد مواقع مختلفة في مدينة نيويورك، من ضمنها برج التجارة العالمي. ومنذ ذلك الحين، وهو معتقل في سجن اتحادي ويخضع لإجراءات إدارية خاصة تمنعه من أي اتصال مع الخارج.

اُتهم المترجم محمد يسري وكذلك المحامي لين ستي وارت معاً بمساعدة الإرهابي المزعوم على الاتصال مع الخارج ونقل معلومات لمتعاطفين معه.

في ذلك الوقت، قامت الجمعية الأمريكية للمترجمين (ATA) والجمعية الوطنية للمترجمين القضائيين (NAJIT) بنشر بيان عام أثارت حياديته "غير مؤيد ولا معارض لحالة يسري" انتقادات وبلبلة في أوساط المهنيين والقانونيين الأمريكيين.

تطرق المحامون، للدفاع عن محمد يسري، لحياته الخاصة؛ فهو لم يكن مسلماً يمارس الشعائر الدينية، وكان متزوجاً من أمريكية معمدة في الكنيسة، وقد قام على تربية بناته الثلاث على أنهن مسيحيات، ولم يلتحق أبداً بأي تعليم ديني، ولم يساند أبداً علانية الإرهابي المزعوم (شيخ عبدالرحمن).

استندت الجمعية الأمريكية للمترجمين (ATA) والجمعية الوطنية للمترجمين القضائيين (NAJIT)، من جهتهم، على كتابة المحادثات بين يسري والشيخ المسجون (٢٧٥ صفحة) لإثبات أنه "لم يكن يقوم بعمله"، والأسوأ أنه كان يفتقر للكفاءة، لكن "دون إطلاق أحكام مسبقة على نواياه".

بالنسبة لهاتين الجمعيتين، إن تسجيل المحادثات بين "المترجم" و "عميله" يبين وجود تواطؤ واضح وتعاطف مشبوه. ترتكز إدانة المترجم أكثرعلى هذا التواطؤ غير المشروع من تقصيره وإخلاله الجلي بواجباته المهنية.

في قرار اتهامه، نوه النائب العام أن المتهم كان يتصرف باعتباره محاميا وكان يضع نفسه محل الدفاع المتعهد للإرهابي المزعوم، ولم يكن يعمل في أي لحظه بصفته مترجماً. قام "بالتلاعب" بمخاطبيه مهملاً ترجمة بعض المقاطع ومحرفاً لترجمة بعض الإجابات. ونتيجة لذلك، أصبح موضوع هذا التلاعب بنص مخاطبيه إثباتا على عاتقه آل بالمتهم إلى السجن.

ترجمة وتلاعب

تبين "حالة يسري" أن ليس هناك ترجمة محايدة. فكل ترجمة انعكاس لالتزام فكري أو لاختيار إيديولوجي، أو انتقاء للمفردة، أو بالأحرى لتوجه تواصلي.

ما الذي يدفع مترجما مصريا أو عراقيا للعمل بصورة مستمرة لصالح الجيش الأمريكي، إذا لم نقل التجنيد، مهما كانت الأسباب والدوافع وراء ذلك؟

وما الذي يدفع فردا ما إلى أن يترجم أعمالا ممنوعة، إذا لم نقل الاختيار الإيديولوجي لشن معركة؟

ما الذي يقود وسائل الإعلام إلى الرد على هذا التصريح أو ذاك، إذا لم نقل التوجه التواصلي لمحتواها؟

لكن عندما يبدو أن الترجمة ذاتية، فإن بعد التطور الزمني للكلمات وإيحاءاتها يشوه ميول المترجم نحو هذه النظرة أو تلك للواقع وللأشياء.

في وقت الحرب، يعد المترجم إيديولوجيا، أي أنه ناقل للأفكار. لكن ليست أي أفكار؛ إذ يتضح من خلال فحص لعدة حالات، أنه ينقل فقط الأفكار التي تحلو له بكلمات اختارها. كما أنه ينتقي النصوص المراد ترجمتها ويشكل النص المصدر برغبته، ويوجه المتلقي باختيارات لغوية دائماً قابلة للنقاش، غير بريئة أبداً.

في المناطق التي تسود بها الصراعات، إن المسؤولية التي تقع على عاتقه كبيرة لأنه يشكل - من خلال كلمات اللغة- العالم الواقعي للناس الذين يناضلون أحياناً ليبقوا على قيد الحياة.

أصبح البعض لا يشق له غبار في فن التلاعب فقط باستخدام الترجمة. هذه حالة معهد MEMRI (معهد بحوث وسائل إعلام الشرق الأوسط).

في عام ١٩٩٨م، أنشأ هذا المعهد يغال كارمون، عقيد سابق في أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية خلال عشرين سنة (١٩٦٨م- ١٩٨٨م)، وعدد كبير من موظفيه يأتون مباشرة من الموساد. وهو بتمويل من تبرعات خاصة ومن مؤسسات خيرية من اليمين المحافظ الجديد الأمريكي.

لدى المعهد مكاتب في القدس، وفي برلين، وفي لندن، وفي واشنطن، وفي طوكيو...وفي العراق. يقوم على توظيف مئات المترجمين، الإسرائيليين بشكل رئيس، ويقدم مجاناً ترجمات للإنجليزية، والألمانية، والفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، واليابانية. ذلك يعني أنه المصدر الرئيس للمعلومات في البلاد العربية والمسلمة، حتى لو كانت تشكل أحياناً برقياته حالات دعائية واضحة.

منذ بداية الحرب في العراق، يقدم معهد MEMRI يومياً ترجمات بلغات متعددة لعدد كبير من الوثائق المكتوبة والمصورة بالفيديو، المنشورة بصورة أساسية باللغة العربية، وأحياناً باللغة الفارسية والتركية. من خلال هذه الترجمات، كما يقدم "تحليلات ثقافية" تخص ظواهر سياسية أو دينية للشرق الأوسط. وتفيض يومياً مكاتب الصحافة بترجماته وتحليلاته التابعة للوكالات الأمريكية والأوروبية. يحصل عليها زعماء الرأي مثل: رجال السياسة والصحافيين مجاناً دون حتى أن يطلبوها. إن معهد MEMRI يفكر في كل شيء.

لهذا العالم الصغير الذي يجلب أحداث الساعة، إن تحليلات وترجمات MEMRI هي بدهياً رزق من الغيب. فالعمل مسهل لهم والجميع له الحق في ذلك. لكن ليس هناك أي شخص يتساءل عن طريقة مثل هذا العرض غير الربحي وسببه.وخلاصة القول: من تفيد هذه الترجمات؟ فهناك غياب تام للعقل الناقد في الوقت الذي نكون فيه بأمس الحاجة لذلك...

يتضح أن MEMRI يقوم منذ عدة سنوات بعملية اتصال عجيبة وتضليل على الشرق الأوسط الذي قام صحافيوه بترديد ذلك مرات عديدة في الصحافة الناطقة بالفرنسية وبالإنجليزية على حد سواء. لكن دون جدوى، إذ يبدو عرض MEMRI في غاية الإغراء؛ مما يصعب رفضه.

غير أن القضية خطيرة؛حيث يستغل هذا المعهد الذي يحمل اسما مستعاراً تقنيات الدعاية التقليدية بشكل مفرط وينتقي عناصر صغيرة ويقوم بتحويلها إلى مآسٍ، ويعزل باستمرار العناصر المترجمة من سياقها، ويصر حصرياً على العناصر السلبية التي تمس العالم العربي، ويعطي صورة سلبية بصورة متكررة عن الإسلام والمسلمين، ويقوم على خلط الأنواع بين معلومة ونقل معلومة من خلال الشبكات الاجتماعية على الانترنت، إلخ. باختصار، ليس هناك ما هو سلمي للغاية ولا إنساني في الإجراء.

فيما يخص نظرته عن الوضع في العراق، فأقل ما يمكن أن نقوله: إن الوضع موجه توجيهاً واضحاً نحو "صدام حضارات". كما أنه من المدهش أن المعهد كان هو أساس بعض حملات الدعاية التي تتحدى العقل.

الرعب الذي تنشره الترجمات السيئة

تعد ترجمة رسالة للزرقاوي في خريف عام ٢٠٠٥م مثالاً يوضح الترجمة الموجهة، بل حتى المتلاعب بها، إذ استُخدمت هذه الترجمة محفزاً للعنف بين الطوائف الذي كان يخفيه رماد نظام مخلوع.

كان أبو مصعب الزرقاوي، زعيم القاعدة في العراق، يرعب الأمريكيين في العراق، قبل قتله في غارة أمريكية في شهر يوليو عام ٢٠٠٦م، وشكلت خطاباته المشتعلة نقطة تجمع للمحاربين الجهاديين في العراق، وبشكل أوسع في الشرق الأوسط والمغرب العربي.

يُعرف له ظهور من خلال تصوير فيديو في الصحراء العراقية، وذلك قبل شهرين من موته، برفقة مرافقيه الضباط الأساسيين برتبة ملازم أول. لكنه كان يعتاد التواصل كتابياً أو من خلال تسجيل صوتي لتجنب أي تعرف على المكان الذي يتخفى به.

كما هو الحال كل عام، بمناسبة ذكرى أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، يقوم الزرقاوي بنشر تسجيل صوتي ينتظره أنصاره بفارغ الصبر لأنه يتضمن عامة إعلان عن أحداث جديدة للقاعدة في العراق.

ونشر التسجيل المجرّم هنا على جميع المنتديات الإسلامية والجهادية ابتداءً من تاريخ ١٢ سبتمبر عام ٢٠٠٥م. إن الخطاب الذي يحتويه التسجيل باللغة العربية الفصحى، ويستخدم صيغا قديمة للجمل ويحاكي بسخرية أسلوب القرآن. ربما أيضاً غير متاح لعامة الناس، بل حتى للناطقين باللغة العربية باعتبارها لغة أما، نظراً للفروقات الملحوظة بين العربية الفصحى واللهجات في كل بلد.

غير أنه ظهرت ترجمة باللغة الإنجليزية بعد يومين من نشره في تاريخ ١٤ سبتمبر عام ٢٠٠٥م، وحظيت بتغطية إعلامية وصحافية لا مثيل لها. وتداولتها وذكرتها معظم وسائل الإعلام، لأن خبراء مكافحة الإرهاب يعتقدون أنهم اكتشفوا تغييرا كبيرا في استراتيجية القاعدة في العراق. وأذاعت في كل مكان وسائل الإعلام الأمريكية خاصة أن الزرقاوي قرر شن "حرب شاملة ضد الشيعة" وأنه يدعو إلى اغتيالهم في كل مكان حيثما وجدوا. وهذا يتابين مع الأعمال الداخلية للقاعدة التي تستهدف بالأحرى الوزارات، والثكنات العسكرية، ومراكز الشرطة، والمواكب العسكرية، والدوريات الأمريكية، باعتداءات متزامنة، فهذه بصمتها وأهدافها المفضلة.

وهكذا، يبدو مدهشاً أن الزرقاوي يدعو إلى تغيير جذري لاتجاهه في محاربته للأمريكيين، في حين أنه بحاجة إلى حيادية السكان المدنيين لمواصلة معركته. فإن القيام بفتح جبهة ثانية لمحاربيه في نفس اللحظة المهاجم بها من كل اتجاه يبدو عشوائياً، أو على الأقل غير متوقع. لاسيما أنه انضم قبل ذلك بعام لأُسامة بن لادن شريطة ألا يهاجم مسلمين آخرين، كانوا الشيعة وقتها.

باختصار، انتشرت على نطاق واسع الترجمة الإنجليزية للتسجيل المشهور للزرقاوي بلا مقابل وتداولتها بمهارة وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية التي سارعت بالتنبؤ بـ "حرب مدنية" تستهدف "كل الشيعة".

كانت الترجمة بالإنجليزية للتسجيل الأصلي مذكورة بصورة مبتورة، إذ كانت تقتصر على مقاطع تبدو لوسائل الإعلام في ذاك الوقت أنها تحمل معاني أكبر. غير أنه ليس هناك أي صحافي حاول التحقق من سياق الشواهد ولا سماع التسجيل الأصلي باللغة العربية للتأكد على الأقل من صحة الترجمة. كان الجميع يكتفي بتكرار الترجمة

الإنجليزية المبتورة، بحيث تحل بسرعة هذه الترجمة محل النسخة الأصلية في العقول وفي الأحداث.

ما كانت هذه الترجمة لتثير اهتمام المختصين لو لم تؤثر على اتخاذ القرارات السياسية والعسكرية على أرض الواقع من جهة قوات التحالف ومن جهة الحكومة العراقية على حد سواء.

وباتباع المحتوى المزعوم لخطاب الزرقاوي حرفيا و بتوقع "حرب شاملة" قد دعا لها الزرقاوي، اتخذت السلطات العراقية والقوات الأمريكية تدابير على الأرض تقود إلى إعادة تسليح شامل للميليشيات الشيعية، خاصة جيش المهدي وفرق بدر؛ حيث تضم فعلياً كافة الشروط الملائمة لاندلاع "حرب بين الطوائف" كان الجميع يخشاها. وهكذا، تم إنجاز النبوءات ذاتية التحقق بفضل الترجمة سيئة الهدف.

اليوم من السهل إثبات أن هذه الترجمة ليست فحسب متلاعبا بها على عدة نقاط بل إنها أيضا تحتوي على أخطاء لا يصدق أن تكون وليدة الصدفة. فالتلاعب بها واضح والعمل على خلط الأوراق جلي.

أولاً من المناسب التأكيد - من أجل هذا النوع من الوثائق ذات الأهداف السياسية- على أنه ينبغي العمل مباشرة من خلال نص أصلي (هنا النص العربي) وليس من خلال ترجمة (هنا النص الإنجليزي) لا تكون إلا سيئة نظراً للسياق.

هناك أسئلة منطقية ينبغي طرحها: من قام بهذه الترجمة؟ ولحساب من؟ ومن نشر بالمجان النسخة المترجمة؟ وما الهدف وبأي حق؟ إلخ، أكتفي هنا بمشكلة واحدة يبدو لي أنها جوهرية وخطيرة.

فيما يتعلق بشأن تسجيل الزرقاوي، تكمن المشكلة الحقيقية في الترجمة على مستوى تسمية الممثلين المختلفين للصراع العراقي؛ إذ قام المترجم العراقي بترجمة

التسميات المختلفة "للشيعة" بصورة غامضة وغير محددة، وأحياناً مع جهل تام لمعناها التاريخي والثقافي والديني، في حين أن الزرقاوي اختار تسمياته بعناية واستخدمها بدقة.

إن الترجمة الإنجليزية ليست ترجمة يمكن الاستعانة بها هنا. إذ ينبغي سماع التسجيل بعناية باللغة العربية لإدراك أن التسجيل يستخدم كلمات مختلفة "للشيعة" في كل مقطع وفي كل حركة في خطابه، في حين أن المترجم ترجم كل التسميات بكلمة واحدة "شيعة".

ولتوضيح تفاهة الترجمة، يكفي الرجوع للنص الأصلي وتحديد الكلمات العربية المستخدمة في كل حالة؛ إذ يتيح هذا فهم المقصود من الكلام بصورة دقيقة. وهكذا، يتيح استنباط الكلمات المكررة لـ "شيعة" في الترجمة، واستنباط مقابلاتها الدقيقة في النص العربي، إجراء الملاحظات التالية:

- في الكلمة الأولى المكررة، تكون الكلمة الدقيقة المستخدمة في العربي هي "روافض" وليس "شيعة". وإن التعبير باللغة العربية هو "إخوانكم الروافض".
- في الكلمة الثانية المكررة، ليست الكلمة المستخدمة "الشيعي"، ولكنها بالتحديد "أحفاد ابن العلقمي". وفضلاً عن ذلك تجدر الإشارة إلى أن المترجم لم يترجم الكلمة العربية "أحفاد" في حين أن هذا التعبير نفسه يتكرر ثلاث مرات في النص "حكومة أحفاد ابن العلقمي".
- في الكلمة الثالثة المكررة، أيضاً هنا الكلمة المستخدمة ليست "الشيعي"، بل هي أيضاً مرة أخرى "الروافض".
- في الدقيقة الثالثة عشرة إن التعبير الدقيق المستخدم باللغة العربية هو "شيعة روافض". وتجد الإشارة إلى أن هذا هو المكان الوحيد في الخطاب الذي يستخدم به الزرقاوي بوضوح كلمة "شيعي" غير أنه لا يستخدمها لوحدها.

فالكلمة إذن ترافقها التحديد المهم "روافض"، مما يستبعد المجموعات الأخرى الشيعية. فكلمة "روافض" هي في الحقيقة اسم وصفة في اللغة العربية يحدد هوية الكلمة السابقة.

إلا أن المترجم لم يترجم أبداً كلمة "روافض"وليس ذلك فحسب، فهو علاوة على ذلك عمم على كل الشيعة تعميما لا وجود له في النص الأصلي. وبذلك قام بتحريف كامل للمعنى الجوهري في الجملة .

- في الدقيقة السادسة عشرة إن الكلمة الدقيقة المستخدمة باللغة العربية ليست "الشيعة الصفويين". وهنا أيضاً، لم يترجم المترجم أبداً الكلمات الحقيقة المستخدمة باللغة العربية "الروافض الصفويين". الأسوأ أنه قام بترجمة مغايرة كلياً لمعنى هذا التعبير.

في الخطاب الأصلي، يتبع هذا التعبير تعبير آخر يحدد معناه بوضوح :"حكومة ابن العلقمي". وفضلاً عن ذلك، يبدو هذا منطقياً أكثر لأن هناك غير الشيعة في الحكومة العراقية، فهم كلهم يطلق عليهم "أحفاد ابن العلقمي" لأنهم ينظر إليهم على أنهم "متعاونون". وهنا أيضاً حرّف المترجم المعنى بترجمته بكل بساطه للتعبير بـ"شيعة".

ومجمل القول: إن هناك خمس تسميات في النص تتوافق مع كلمات مختلفة وهي ليست مترادفات في اللغة العربية، لكنها تُرجمت بنفس الكلمة "شيعي". ولنأخذ على سبيل المثال لكي نفهم بصورة أفضل ظروف وملابسات هذا التلاعب المخزي:

في اللغة العربية، يُطلق التعبير "أحفاد ابن العلقمي" على "العملاء" عامة، أي العراقيين الذين يساعدون القوات الأمريكية، أياً كانت طائفتهم أو عرقهم. ويوصف أيضاً العرب السنة والأكراد المتعاونون مع الأمريكيين بهذا التعبير المهين. وإذا أردنا

إعطاء المعنى الحقيقي لهذه التسمية، فالترجمة إذن الدقيقة ليست "الشيعي"، بل هي "العميل" بصورة دقيقة جداً.

إيضاح وتفصيل: كان ابن العلقمي وزير آخر الخلفاء العباسيين، المعتصم (١٢٥٨م- ١٢٤٢م). فهو مكروه في التاريخ الوطني العراقي لأنه تعاون مع جيش العدو، وهم التتار في ذلك الوقت، وسلم البلد متعمداً، خاصة بغداد، إلى المحتلين الأجانب. وقد وعده زعيم التتار بأن يعينه خليفة مكان الخليفة المقال من منصبه، ولكن بمجرد سقوط بغداد بين يديه، أُرسل ابن العلقمي إلى إسطبلات الخيول ليرعى خيول أسياده الجدد. ومنذ ذلك الوقت، ينظر إليه العراقيون باعتباره مثالا نموذجيا للعميل الذي يخون بلده ليلبي تطلعاته الخاصة والذي يفشل_ بالرغم من كل شيء_في مكيدته.

وأما تسمية "الصفويين" فتعني في اللغه العربية "أتباع الصفويين"، وتطلق عامة على الإيرانيين. إذن، ليست الترجمة الدقيقة لـ"صفويين" هي "شيعة"، بل "إيرانيين".

إيضاح وتفصيل: إن "الصفويين" هم الشيعة المتبعون لعقيدة رجل دين مسلم في القرون الوسطى يُدعى صفي الدين الأردبيلي (المتوفى في عام ١٣٣٤م). وأسس أتباعه "الصفويون" أول دولة شيعية في إيران سُميت "دولة الصفويين"، فهي دولة استطاعت أن تحافظ على استقلالها من عام ١٥٠٢م إلى عام ١٧٣٦م، قبل سقوطها تحت سيطرة الامبراطورية العثمانية. وإن مؤسسها هو الشاه إسماعيل الأول، وكانت عاصمتها في تبريز. وتطالب حالياً الحكومة الإيرانية بحقها في هذا الجزء من التاريخ الإسلامي؛ لأنها كانت المرة الأولى التي كان بها يعد لإيران المذهب الشيعي ديانة رسمية للدولة.

أخيراً، تعني كلمة "روافض" حرفياً باللغة العربية: "المنكرين والجاحدين". وهذه التسمية تطلق بصورة دقيقة على الشيعة الذي لا يعترفون بخلفاء المسلمين الثلاثة الأوائل (أبو بكر، وعمر، وعثمان). إذن، ليست كلمة "شيعة" هي الترجمة الدقيقة لـ"روافض" "أو من مشتقاتها رافضة". فضلاً عن ذلك، فكلمة "روافض"، في تسجيل الزرقاوي، مستخدمة مع كلمات أخرى وفقاً للسياق نحو: الشيعة المنكرين والجاحدين "الشيعة الروافض"، والمنكرين الجاحدين الإيرانيين "الروافض الصفويين". وتجدر الإشارة إلى أن "الشيعة المنكرين الجاحدين" هم فئة من الشيعة وليس هم كل المسلمين الشيعة في العراق ولا في العالم. لا سيما أن هناك مجموعات أخرى شيعية مثل مجموعة مقتدى الصدر التي حاربت الأمريكيين، كما فعل الثوار السنة.

إيضاح وتفصيل: تعود كلمة "رافضة" أو "روافض" إلى عدة فرق من المذهب الشيعي. وتاريخياً ظهر "المذهب الرافضي" أولاً في الكوفة في العراق، ومن ثم انتقل إلى مدينة قم في إيران، وذلك نحو نهاية القرن الثامن. وبذلك، أصبحت مدينة قم معقل المذهب الرافضي، ومنذ ذلك الوقت، أخذ التيار الشيعي في الانتشار في مدينة الري ونيسابور في القرن التاسع والعاشر قبل أن يصبح الدين الرسمي لأول دولة شيعية في إيران تحت سلالة الصفويين الحاكمة (١٥٠٢م- ١٧٣٦م).

منذ هذه البدايات، تميز "المذهب الرافضي" بمواقف معادية للسنة المتطرفين. وينظم كبار رجال الدين في المذهب الرافضي، مثل ضرار بن عيان (المتوفى في عام ٧٦٧م) وهشام بن الحكم (المتوفى في عام ٧٩٥م) نشاطا فكريا مناوئا للسنة مع نضال سياسي يقوم على مفهوم التقية الذي يعد أساس تيار هذه الفرقة.

وهكذا، فإن هناك عدة مجموعات شيعية في الإسلام "الاثنا عشرية والإسماعيلية والإمامية والزيدية، إلخ"، لكن أتباع المذهب الرافضي هم المجموعة الوحيدة المعارضة

جذرياً لكل مذاهب أهل السنة. ومنذ بداية تاريخ المسلمين، والكتّاب السنة يميزون في كتاباتهم بين "رافضة" (منكرين جاحدين) وبين "شيعة". فعند أهل السنة، تصف كلمة "شيعة" موقفا مؤيداً لعلي بن أبي طالب، ولكنها لا تصف بدعة، في حين أن كلمة "رافضة" تصف أهل البدع المعارضين بشراسة للمذهب السني بصفته عقيدة. ويصف كُتّاب القرون الوسطى، بما في ذلك الكُتاب الشيعة، الرافضة على أنهم غلاة متطرفون، خاصة لتقديسهم شخصية علي بن أبي طالب على أنه إله. ومنذ القرن الحادي عشر، وهم يشبهون - بسبب هذا التقديس المفرط لعلي بن أبي طالب- بالصليبيين لتقديسهم للنبي عيسى. وهذا يفسر التعبير المستخدم في أول بداية تسجيل الزرقاوي الذي يقول حرفياً: "الصليبيون وإخوانهم الروافضة". وفي الواقع، فهو لا يقوم إلا باقتباس وصف هذه المجموعة عند كُتّاب القرون الوسطي المشهورين الذين يذكرهم باستمرار، مثل ابن حنبل وابن تيمية.

و مجمل القول: إنه ينبغي توخي الحذر عندما يتعلق الأمر بترجمة نصوص دينية وتاريخية؛ لأن المصطلحات ليست أبداً واضحة وليست مكافئه لبعضها البعض. وعلاوة على ذلك، لا ينبغي أبداً الوثوق بالنسخة الواحدة فحسب، بل من المناسب العودة للنص الأصلي للتأكد من المعنى المستخدم والحرص على مقارنة ترجمات مختلفة للنص نفسه، قام بإنجازها - إذا أمكن ذلك- مترجمون أو مؤسسات مختلفة.

في الحقيقة، إن الطريقة الوحيدة لكي ينجز الشخص عمله بصورة صحيحة وبنزاهة، هي القيام فعلياً بعملية ترجمة- تحليل. وتكمن هذه العملية بتوعية المترجم المهني لبُعد اللغة السياسي لكي لا يقتصر عمله على فك شفرات العلامات اللغوية. إذ يجدر به أن يكون مدركاً جيداً لمعاني الكلمات الضمنية، ويقظاً جيداً للمحتوى

الفكري الذي تحمله الكلمات دون إدراكه لذلك. ومن هذا الاستشعار لأهمية التحليل، ينبثق تصور جديد للترجمة مفيد جداً وأكثر تماشياً مع أخلاقيات المهنة.

حالة نموذجية: رسالة الظواهري المزورة

في شهر ديسمبر عام ٢٠٠٥م، قبيل الاستفتاء الذي يفترض إجراؤه، نشرت البنتاجون دون إنذار مسبق ودون طلب من أي شخص، للعالم وثيقة في غاية الأهمية، لكونها تتعلق برسالة سرية من الظواهري الذراع الأيمن لابن لادن والرقم الثاني في منظمة القاعدة. في ذلك الوقت، أكدت البنتاجون رغبتها في نشرها لتبين النوايا الحقيقية للمنظمة الإرهابية واستراتيجيتها المستقبلية في العراق.

كما جرت العادة، هرع الصحافيون الإنجليزيون نحو الوثيقة آنفة الذكر ووجدوا بها بصورة سحرية أسوأ التحليلات الأمريكية قام بكتابتها باللغة العربية في النص أسوأ أعداء أمريكا. سارعت في البداية وسائل الإعلام بلا روِيَة بنقل هذه المعلومة، ولكن الظروف الخيالية التي "استولت" بها الأجهزة الأمريكية على هذه الرسالة في العراق أفقدت أهمية واحدة من عمليات التلاعب الماكرة جداً في حرب العراق.

على الصعيد الرسمي، وحسب ما أدلى به المسؤولون في البنتاجون الذين قاموا بتحليل الرسالة، إن هذه الأخيرة قام بإرسالها الرجل رقم ٢ في منظمة القاعدة على المستوى العالمي، وهو الظواهري إذن، إلى رقم ١ في منظمة القاعدة في العراق، المدعو الزرقاوي، وذلك وقت قمة مجده الإرهابي.

المشكلة الأولى، كانت الرسالة بتاريخ ٩ يوليو ٢٠٠٥م، أي قبل خمسة أشهر تقريبا من نشرها. فلماذا هذه الفترة، وماذا عن توقيت نشرها؟ إن هذا محير.

نظراً لوظيفتي في ذلك الوقت، استطعت الوصول للنسخة العربية الأصلية للظواهري، وبذلك استطعت الحكم على صحة الوثيقة ومصداقية المصدر، قبل تقييم ترجمتها. من جهة أخرى، كان يسهل علي إدراك الثوابت والمتغيرات في هذا النوع من الكتابات، نظرًا لما أتمتع به من خبرة عريقة في مجال الكتابات الإسلامية عامة وكتابات زعماء منظمة القاعدة خاصة.

ناهيك عن عدم الفائدة من إجراء ملاحظات هنا على الشكل الخارجي للرسالة التي قام بتسليمها الأمريكيون؛ حيث كانت عبارة عن إخراج سينمائي ردئ مع تصوير مشوه، جودته رديئة، كان هدفها التضليل والإيحاء بأن جزءاً من النص كان مفقوداً في النص الأصلي، وبأن النص كان، في أماكن مختلفة، غير مقروء وغامض. باختصار، فإن هذا يشترك كثيراً بعمل رديء قام به متدربون مروجون للدعاية غير مؤهلين، علاوة على أنهم لا يفقهون شيئاً في اللغة العربية.

بالتالي، قمت بالتركيز على الوثيقة الأصلية المختومة بختم البنتاجون، ودهشت دهشة كبيرة عندما اكتشفت أن هناك مشاكل فادحة على كافة المستويات. بعد ذلك، تيقنت بأن هذه الرسالة ليست صحيحة. وها هي الأسباب الرئيسة:

أولاً: يستخدم صاحب الرسالة لغة عربية مبهمة وغير دقيقة، وأحياناً غير مناسبة؛ مما ينم في أماكن متعددة عن جهل مطبق لقواعد النحو العربي وللخلفية التاريخية، في حين أن الظواهري صاحب مذهب فكري يتوخى الحذر في استخدام مصطلحاته المستقاة من مصادر في اللغة العربية مناسبة ودقيقة بصورة واضحة في كافة كتاباته وخطاباته.

بينما يوجد في رسالته الغريبة هذه تفكك كلي في استخدام ضمائر الفاعل في اللغة العربية، والتسميات والاستخدامات غير المناسبة والمتعارضة مع شخص

الظواهري، مثل: "حركة مجاهدة، و حركة جهادية، وحركة جهادية شعبية، وحركة إسلامية مجاهدة"...إلخ. كانت كل هذه التسميات مستخدمة الواحدة تلو الأخرى في نفس المقطع، في حين أنها ليست مترادفات، وخاصة أن الظواهري لا يستخدمها، لكون كل واحدة منها تعكس وجهة نظر خارجية لا يمكن أن يتبناها الناطق الرسمي نفسه للجهاد من منظور شامل.

كما أن هناك استخدامات اصطلاحية وألقابًا فخرية لا تمت بأي صلة إلى بلاغة الظواهري وإلى محيطه السني عامة. لنذكر على سبيل المثال المقطع الذي يذكر به ابن ابن عم الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم): "الإمام السبط الحسين بن علي، أي الإمام المقدس، وأمير المؤمنين عبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن الأشعث".

من البدهي لنا أن المؤلفين والإسلاميين السنة مثل الظواهري لايستخدمون على الإطلاق هذه الألقاب وهذه الصفات لابن عليَ (الحسين بن علي) ولا يعترفون بأي من الشخصيات المذكورة آنفاً (لا بالأشعث ولا بابن الزبير أميرًا للمؤمنين).

إذ تنتمي هذه الشخصيات التاريخية حصرياً لمحيط المراجع الشيعية وأن هذه الألقاب المستخدمة من مميزات الأدب التقريظي للمذهب الشيعي. فضلاً عن ذلك، نلاحظ المشكلة نفسها في أماكن أخرى من الرسالة فيما يتعلق بعليَ (كرم الله وجهه). ومن المعروف أن السنة لا يستخدمون هذا التعبير التأبيني ولكنهم بالأحرى يستخدمون تعبير: (علي رضي الله عنه).

تقود مؤشرات أخرى من نفس النوع للتساؤل عن حقيقة هذا النعت.

وهكذا، فإن هناك مفاهيم شيعية يستحيل أن نجدها عند كاتب سني. هذا يتضح في الجملة "لا أدعي العصمة"؛ حيث لم يكتب كاتب سني هذا أبداً، وبالاستنتاج، فهو الظواهري، لأن مفهوم العصمة لا يمت كلياً للمذهب والعقيدة السنية بصلة،

وبالتالي، فهو غائب في الخطابات والكتابات السنية؛ لأن عند أهل السنة الله وحده هو المعصوم.

يتكرر هذا الخلل في موضع آخر في النص: "لا أدعي فيه العصمة"؛ فالظواهري لم يستخدم هذه الجملة ولا يمكن أن يستخدم هذه الجملة في هذا السياق.

تجدر الإشارة أيضا إلى أن مفهوم العصمة مفهوم شيعي بامتياز. يستخدمه فحسب الكُتّاب الشيعة لأئمتهم لأنهم يعتقدون أنهم "معصومون". لا يستخدم أهل السنة هذا المصطلح البتة ويعتقدون أنه ليس هناك أي كائن بشري معصوم. والأسوأ أن السنة يرون أن الاعتقاد بعصمة الأئمة ضرب من ضروب البدعة المستنكرة.

سرعان ما يقودنا هذا إلى استنتاج أن الشخص الذي اختلق هذا التزوير هو من الطائفة الشيعية أو بالأحرى فهو متأثر جداً بالمرجعيات والتعابير الاصطلاحية للمذهب الشيعي. في كل الأحوال. إن الشخص الذي قام بالكتابة يبدو أن ليس لديه أي معرفة بالمراجع التاريخية ولا بالاستخدامات الخطابية للكتاب المسلمين السنة. وعلاوة على ذلك، فهو يجهل مفاهيم الإسلام السني المنتشر انتشاراً واسعاً في العالم جهلا تاما، ولا يبدو لديه أدنى إدراك للرقابة الفكرية والعقائدية لخطابه الواضح حتى عبر مصطلحات هذه الرسالة المزورة.

ولكن هناك ما هو أسوأ: أخطاء لغوية واستخدامات في غير محلها للكلمات العربية. بالتالي، فالمزيف يستخدم الفعل "تتطلع" عوضاً عن الفعل تَطَّلِعُ. كما يستخدم كلمة "عقيدتي" عوضاً عن "اعتقادي"، وكلمة "طبيعة" عوضاً عن "طبع"، وكلمة "واضعين" عوضاً عن كلمة "وضعيين"، و استخدام كلمة "قتل" و "قتال" في نفس الجملة مترادفتين، بينما الأمر ليس من ذلك في شيء.

هذه الأخطاء مثيرة للسخرية والضحك لدرجة إننا مندهشون من عدم كفاءة كاتب هذه الرسالة في اللغة العربية. بل إن تلاميذ المرحلة الثانوية في البلاد العربية لا يرتكبون مثل هذه الأخطاء النحوية الفادحة. أما إذا افترضنا أن مثل هذه الأخطاء هي من صنع الظواهري، فإنه يكفينا قراءة أيٍ من كتاباته الحقيقية لنبذ هذه الفكرة قطعياً. فالشخص الذي ألف هذا الجزء من الرسالة ليس لديه إلا معرفة سطحية جداً بالنحو العربي. لكن الأسوأ أنه قد يجهل كل المفاهيم الأساسية للفكر الإسلامي.

باختصار، هذه الرسالة لا يمكن أن تكون صحيحة. ولا يمكن أن يكون الظواهري هو من قام بكتابتها، وهو صاحب الأسلوب والفكر المعروفان حق المعرفة عند المختصين. فالرسالة تحتوي على أخطاء جوهرية وشكلية لا تُعد ولا تُحصى كفيلة بالدلالة على أنها مزورة بصورة مخزية. فإن اللغوي الفطن لا يمكن أن يقع ضحية تلاعب فادح تحتويه الرسالة.

حتى إن هدف الترجمة- التحليل هو إطلاع الجمهور المتلقي على الأخطاء والتلاعبات التي ليس بمقدوره إدراكها دون مساعدة مترجم. على أيه حال، ليس بإمكان المترجم القبول بمثل هذه الوسائل الدعائية إذا كان مدركاً لذلك، لأنه لا يشوه قيمة عمله فحسب، وإنما يشوه المهنة بأكملها؛ حيث قد تبدو غير نافعة كلياً للقيام بلا تبصر بترجمة وثيقة مزيفة، أوأنها مهنة معيبة أسهمت بنشر دعاية بمثل هذه التفاهة. في جميع الأحوال، العملية غير مجدية، ولا طائل منها، حتى إذا كان الأمر يتعلق بمعلومات حقيقية. وهذا هو المثال على ذلك.

قائمة مشاهير القاعدة

في شهر يناير عام ٢٠٠٨، بعد أسابيع من الترقب الذي اعتنت البنتاجون به بذكاء، نُشر على موقع مركز مكافحة الإرهاب (www.ctc.usma.edu) وثيقة كبيرة الحجم مشهورة باسم ملف سنجار المشتق من اسم المحافظة العراقية التي تبعد ١٠ كم من الحدود السورية حيث عثر بها الجيش الأمريكي على هذا الملف خلال عملية شنها في شهر سبتمبر عام ٢٠٠٧م. ومصدر هذه الوثيقة هو جهاز حاسب آلي يرجع لمسؤول رفيع المستوى في تنظيم القاعدة، وتكشف هذه الوثيقة عن هوية المحاربين الأجانب التابعين للمنظمة الإرهابية الذين دخلوا العراق بطريقة غير مشروعة خلال السنة المنصرمة.

كانت العملية على نطاق واسع: نص يقع في ٨٥٠ صفحة مكتوب باللغة العربية، بينما تقع الترجمة في ٦٥٠ صفحة، كما كان هناك تقرير باللغة الانجليزية يقع في ٢٥٠ صفحة يحتوي على تحليلات وتعليقات لهذا الملف سالف الذكر. وكل هذا كان منشوراً على الانترنت بصورة مجانية وبشكل متاح لجميع مستخدمي الانترنت، يستطيع تحميله أي متصفح لشبكة الانترنت في العالم.

وهذا الموقع يحوي صوراً لمنسوبي تنظيم القاعدة المفترضين، وهوياتهم الكاملة وأعمارهم، وأوضاعهم الاجتماعية وأماكن نشأتهم، وفي أغلب الأحيان أرقام هواتف بعض ذويهم: الأم، والأب، والأخ، والعم والخال، والحماة. من بين المعلومات الموجودة في الملف، هناك أيضاً نوع الوظيفة التي يشغلها المرشح قبل تعيينه، والمبلغ الذي تركوه لصالح المنظمة الإرهابية: بعض الدولارات، وساعة يد، وهاتف محمول، وخاتم فضة، ونسخة من القرآن، وجهاز قارئ صوتيات Mp3.

هناك اندهاش عام أمام هذا الكم المفرط من التفاصيل الشخصية والمعلومات السرية. لاسيما وأن هذه القضية تثير التساؤل والاهتمام، حيث أن مركز مكافحة الإرهاب (CTC) التابع للأكاديمية العسكرية المرموقة West Point، اشتهر بجديته وصرامته. وهو مركز أبحاث مرتبط مباشرة بالجيش الأمريكي، ويشرف لحساب وزارة الدفاع على قاعدة الوثائق المشهورة (Harmony) التي تتيح لعامة الناس على شبكة الانترنت عددًا كبيرًا من المعلومات والوثائق المتعلقة بـ"الحرب على الإرهاب".

في بداية سنة ٢٠٠٨م، قامت وكالات الأنباء بنشر البرقية المتعلقة بهذا الملف ونقلتها معظم وسائل الإعلام في العالم تدعمها تحليلات مختصة كثيرة. وبفضل هذا الملف، ثبت لدى الأمريكيين أخيراً أن "انتحاريي" القاعدة في العراق هم بصورة رئيسة من السعودية والمغرب العربي، لأن نصف "المقاتلين" كانوا من السعودية، والنصف الآخر كان من دول شمال أفريقيا. أخيراً تظهر سوريا على أنها نقطة عبور لا يمكن تجنبها لـ "المرشحين للشهادة".

لم يكن تاريخ نشر هذا الملف عبثياً؛ إذ كان الرئيس الأمريكي عائداً للتو من جولة كبرى في المنطقة أسفر عنها نتائج متنوعة. في التاسع من شهر يناير كان في إسرائيل، وفي اليوم التالي كان في الضفة الغربية، وفي الحادي عشر كان في الكويت؛ حيث كان يجري مباحثات مطولة مع القائد الأعلى للقوات الأمريكية في العراق وفي الثاني عشر حط في البحرين، وفي الثالث عشر في الإمارات العربية المتحدة حيث ألقى بها خطاباً عن"الحرب ضد الارهاب" يدعو به دول الخليج إلى اتحاد قوي ضد التطرف.

ثم قام في الرابع عشر من يناير بزيارته الأولى للسعودية، البلد الذي كانت تنوي الولايات المتحدة أن تبيع له أسلحة قيمتها عشرون مليار دولار، ولكن

السعوديين كانوا مترددين. تقريباً في اللحظة نفسها، في الخامس عشر، كانت وزيرة الخارجية كوندليزا رايس في زيارة لبغداد لتقييم الوضع وكانت تستنكر موقف سوريا.

كانت سوريا متهمة بالتواطؤ مع إيران في موضوع العراق وكانت تؤجج الأزمة اللبنانية بمنعها انتخاب رئيس جديد. كما كان مشتبها بها في أنها كانت وراء الأحداث التي هزت بلد شجرة الأرز منذ بداية السنة. في الثامن من شهر يناير، جُرح عسكريان أيرلنديان تابعان للقوة المؤقتة التابعة للأمم المتحدة في لبنان، على إثر حادثة بالقرب من بيروت. وفي الخامس عشر من شهر يناير، استهدف انفجار بالقنبلة سيارة تابعة لسفارة الولايات المتحدة، وقع ضحيته ثلاثة قتلى، وكانت متبوعة بحادثة ثانية في الخامس والعشرين من شهر يناير هلك بها ستة أشخاص كان من بينهم ضابط برتبة نقيب يعمل في الجيش. في الواحد والعشرين من شهر يناير، قام البرلمان اللبناني للمرة الثالثة عشرة بتأجيل الانتخابات الرئاسية؛ نظراً لعدم الاتفاق بين الأغلبية المعارضة لسوريا وبين المعارضة المؤيدة لسوريا.

في هذه الأجواء الخاصة ظهر ملف سنجار، الذي وضع السعودية وسوريا في قفص الاتهام بطريقة تكاد تكون مخفية، على أنهما معاقل قد تفرخ الإرهاب ويحدد تقرير مركز مكافحة الإرهاب أنه يصعب "إقامة تواطؤ محتمل لدى السلطات السورية"، مضيفاً أنه "لا يمكن تصور أن مثل هذه الشبكة لم تتسلل عن طريق الأجهزة السورية".

وفي الـ٨٥٠ صفحة المكتوبة بالعربية، تعبر جميع الجنسيات عن طريق سوريا لتنضم لصفوف "القاعدة في بلاد الرافدين"، هذا الاسم الرسمي لجناح المنظمة الارهابية العراقية. وباختصار، حسب مقولة مركز مكافحة الإرهاب، كل الطرق تؤدي إلى دمشق.

بالرغم من صحة معظم البيانات التي يحتويها ملف سنجار، فإنه يحتوي على عدد من الأفكار غير المتماسكة وغير المنطقية أفقدت مجموع الوثائق قيمتها. وفيما يتعلق بسوريا على سبيل المثال، فالأسئلة الموجودة في الأوراق تثير لأول وهلة الاهتمام والتساؤل، فهي موجهة مثل: "كيف وصلتم إلى سوريا؟ من قابلتم في سوريا؟ من كان المنسق الذي تحمل مصاريفكم في سوريا؟ وكم أُخذ منكم من المال في سوريا؟" إلخ.

إن تكوين الأوراق متنوع في جميع محتوى الوثيقة، وبعضها يعتريه الخلل والنقص وهو ما يولد انطباعا بسرقة بيانات مستمدة من مصادر متنوعة، حتى وإن كانت الترجمة الأمريكية تقدمها بشكل موحد.

لا يظهر الشعار الرسمي لـ "القاعدة في بلاد الرافدين" في أي مكان في الوثيقة الأصلية المكتوبة باللغة العربية. إن الشعارات المدرجة في الأوراق هي شعارات منظمات أخرى مثل "مجلس المجاهدين الاستشاري"، وهي منظمة تم حلها في شهر ديسمبر عام ٢٠٠٦م، و "دولة العراق الإسلامية"، وهي اتحاد مجموعات المجاهدين العراقيين.

وعلاوة على ذلك، فإن الوثيقة "مضخمة" بصورة اصطناعية تحتوي على أخطاء مطبعية بتكرار الكلمات في الأوراق، هناك ما يقارب الخمسين ورقة خالية كلياً بدءا من الورقة رقم ٦٤١ إلى الورقة ٦٩٧، و هناك أوراق مكتوبة بخط اليد بصورة غير دقيقة بدءا من الورقة ٧٩٢ إلى الورقة ٨٥٠، في حين أن بقية الملف مطبوع بجهاز الحاسب الآلي مع عناوين لمجموع المقاطع، إلخ.

كما نستطيع استنباط أخطاء مطبعية باللغة العربية: أخطاء في كتابة عنوان الأوراق وفي بعض الكلمات الشائعة في اللغة مثل "مجاهدين" في الورقة رقم ٧٥٩، و"حافلة" في الورقة رقم ١٧، إلخ.

فضلاً عن ذلك، فإن قواعد اللغة العربية يعتريها الخلل في أماكن مختلفة: أخطاء في تطابق الفعل "ورقة رقم ٧٥٩"، خطأ في تطابق الصفة "ورقة رقم ٣٣"، من الصعب تخيل كُتاب إسلاميين يجهلون اللغة العربية جهلاً كبيراً، في حين أن اختيارهم يتم عادة لإتقانهم للعربية الفصحى ولغة القرآن.

في أغلب الأحيان، الكلمات المستخدمة في غير محلها ولا تتوافق مع الاستخدام الإسلامي. وبذلك، على مئات الأوراق، تحمل الفقرة المخصصة للمرشح للشهادة عنوان "العمل"، بينما نعرف بصورة دقيقة أنه عند مناضلي القاعدة، "الشهادة" هي كل شيء ما عدا "العمل". هذا المصطلح الأخير لا يستخدمه أبداً الإسلاميون المتشددون ويعكس بدهياً وجهة نظر خارج المنظمة الإرهابية.

أحياناً، تكون أسماء حرب أعضاء منظمة القاعدة متناقضة للغاية مع التخصيص المشفر لهذه الأسماء في وسط المنظمة. وهكذا، على سبيل المثال، يُدعى أحد المناضلين "أبو محمد المهرب" (ورقة ٧)، إلخ.

بعض أرقام الهاتف المذكورة في الملف تكون من نسج الخيال. وبذلك، على سبيل المثال، يبدأ رقم الهاتف الموجود في الورقة رقم (١٥) المسجل لعضو تونسي "ابن قارجا" بمفتاح دولي مطابق في الواقع لمفتاح رقم هاتف مغربي (مفتاح الدولة ٢١٢ بدلاً من ٢١٦).

إن السطر الوحيد في كل الملف المجموع باستمرار عنه معلومات دقيقة للغاية هو سطر المبالغ المالية التي قدمها أفراد القاعدة والتي نقلتها للمنظمة قبل بلوغهم الهدف. ولكن، يحتوي أحياناً هذا السطر على بيانات يبدو أنه تم التلاعب بها. وهكذا، في الورقة رقم ١١، يصرح المدعو "عبدالبادي" ليبي الأصل أنه قبض ١٥,٠٠٠ ألف ليرة سورية قبل دخوله العراق، وفي الورقة رقم ٣٢، نقل المدعو "رضوان" تونسي

الأصل، للقاعدة مبلغ وقدره ١٠,٠٠٠ألف دولار نقداً!، في حين أن معدل التبرعات يصل بالأحرى إلى ١٠٠ دولار.

في النهاية، ليس هناك على مجموع ٨٥٠ صفحة من الأوراق مرشح واحد تركي، ولا مصري، ولا إمارتي، ولا كويتي، ولا بحريني، ولا قطري، بينما نعرف حق المعرفة أن هذه البلاد زودت بعدد لا يستهان به من مناضلي القاعدة. وعلاوة على أن هذا مدهش لدرجة أن تنظيم ابن لادن ينشر بانتظام قائمة من "شهدائه" في العراق. وبذلك، نعرف أن هناك الكثير من المقاتلين قدموا من المنطقة، خاصة من مصر وتركيا. غير أن البلاد "الغائبة من الملف" بمثابة الحليف المبين للأمريكيين في المنطقة، وذكرها قد يضع حكوماتها في حرج.

تجدر الإشارة إلى أن ملفي بيانات الشخصين من الرعايا الفرنسيين لهذا التسجيل في القائمة الذي يطابق الورقة رقم ٣٦٤ و ٤٦٨ موجزة إيجازاً غريبا؛ فليس هناك صورة، ولا عنوان ولا توضيح للحالة الاجتماعية وللمهنة هناك فقط اسم حرب "مغاربي" ورقم هاتف "خارج الخدمة"، في حين أن الأوراق الأخرى مفصلة تفصيلاً دقيقاً شبيها بمحضر استجواب أمني.

غير أن البيانات الأساسية لملف سنجار حقيقية، كما أثبت ذلك فيما بعد التحقيقات الأمنية والدراسات الصحافية التي تمت في البلاد المعنية بالأمر، وذلك من خلال تعدد التفاصيل التي يحتويها الملف.

وبذلك، يكون بحوزتنا من خلال هذه العينة الواسعة بعض البيانات المبينة للأشخاص القائمين على التجنيد التابع للقاعدة في العراق: من مجموع ٦٠٦ مرشح، هناك ٢٤٤ من السعودية، أي ما يعادل تقريباً ٤٠٪، و١١٢ من ليبيا (٢٠٪ تقريباً) ومن سوريا (١٠٪)، ومن اليمن (٨٪) ومن الجزائر (٧٪) ومن المغرب (٦٪).

من مجموع ٥٩٠ ورقة التي تشير للموطن، هناك ٤٤٠ ورقة تحدد مدينة الولادة أو الإقامة قبل الذهاب للعراق. هناك مدينتان تظهران بوضوح: من الرياض في السعودية، يوجد ٥٢ مقاتلا من مجموع أكثر من ٤ مليون نسمة، ومن مدينة ديرنا في ليبيا، يوجد ٥١ مقاتلا من مجموع سكان لا يتجاوز ٨٠,٠٠٠ ألف نسمة. وبعد ذلك، يأتي من حيث الأهمية مكة المكرمة "٤٣ مرشحا" وبنغازي "٢١ مرشحا"، والدار البيضاء"١٧ مرشحا"، فهذه مراكز فعلية للتجنيد الجهادي.

متوسط عمر المرشحين يبلغ ٢٤ سنة. وأصغرهم سعودي الجنسية من مدينة الطائف، بالكاد يبلغ خمسة عشر ربيعاً عند وصوله العراق. في المجمل، يتعلق الأمر بجيل جديد من "القاعديين[١]"، سواء كان في المغرب أو في المشرق.

تحت فقرة "العمل"، يشتهر الثلثان بلا وظيفة. يعلن ١٥٧ مرشح فحسب عن ممارستهم لمهنة قبل وصولهم للعراق. وفي مجمل العدد، ٤٠٪ منهم كانوا طلابا قبل الانضمام للقاعدة، وأما الآخرون فكانوا معلمي مرحلة ابتدائية (٥)، ومهندسين (٤)، وأطباء (٣)، ولكن هناك أيضاً بعض العسكريين في الحزمة (٥).

في النهاية، تتعلق الفقرة الأكثر تشويقاً وأهمية لملف سنجار بـ "تعبير أمنيات" المرشحين "مقاتلين أو انتحاريين". من مجموع ٣٨٩ مجند؛ حيث يعلن أكثر من النصف رغبتهم في "الموت شهيداً"، أي: أنهم مستعدون للقيام بحوادث انتحارية في العراق. وتفضل أقلية فحسب المعركة التقليدية، التي ينظر إليها على أنها قليلة الأهمية وضئيلة التأثير على الأمريكيين. يتمنى بقية المرشحين الاستفادة من خبرتهم المهنية في خدمة أعضاء آخرين في القاعدة: إسعافات طبية، عمليات إعلامية، صناعة أوراق مزورة. إلخ.

---

[١] من ينتمي لتنظيم القاعدة. المترجم

إن "تعبير الأمنيات" المنقول للبلد الأصل بنَّاء. في فئة الشهداء، يحتل "المغربيون" الصدارة بلا منازع بنسبة ٩١٪ من الترشيحات، يأتي بعدهم الليبيون بنسبة (٨٥٪)، ثم السوريون بنسبة (٦٥٪)، ثم السعوديون بنسبة (٥٠٪)، ثم التونسيون بنسبة (٤١٪). إن هذا مقياس حقيقي لريختر اليأس.

يفضل أغلبية المرشحين الجزائريين، من جهتهم، بنسبة (٨٥٪) المعركة والعمليات الخاصة. يتمنى ١٣٪ فحسب القيام بتفجيرات انتحارية. على المستوى الجغرافي، يأتي ٣٦٪ من مدينة الوادي الجزائرية، و٢٣٪ من مدينة الجزائر وضواحيها، و١٠٪ من قسنطينة ومنطقتها.

تبين الدراسة التي أجراها في المغرب صحافي مجلة المراسل في عدد ١٠ فبراير عام ٢٠٠٨م "وجود عملاء القاعدة في المغرب"، هذا هو عنوان المقال. وبذلك، نعرف أن الممولين الرئيسين للانتحاريين هم من: الدار البيضاء بنسبة (٦٥٪)، ومن مدينة تطوان بنسبة (١٩٪)، ومن مدينة طنجة (١١٪)، ومن مدينة تارودنت (٤٪).

يوضح الصحافيون الذين قاموا بالدراسة في الميدان أن "جزءا كبيرا من المغاربة الذي ذهبوا للعراق للجهاد هم خاصة من حي ألفه (ضواحي الدار البيضاء). وهذا حال إدريس حاج، وعبدالرزاق غنيمة، ورشيد مقتاني....فهم يقطنون جميعهم ليس بعيداً عن آخر محطة للباص رقم ٣٥".

يحدد الصحافيون أن "تقرير مكافحة الإرهاب أخطأ في صورة عبدالرزاق غنيمة. وقدكان أخوه هو الذي أكد ذلك عندما رأى الصورة. فالوجه الحقيقي (للمقاتل) هو الوجه الذي عرض في قائمة المطلوبين التي نشرتها السلطات المغربية في شهر أبريل عام ٢٠٠٧م".

يضيف الصحافيون: "بصعوبة كبيرة قمنا بالاستماع للأقوال المقتضبة لبعض أفراد بعض العوائل المذكورة في وثيقة مركز مكافحة الإرهاب. وكان أكثرها قيمة ومعنى أقوال أخي الحلاق الذي كان يجتمع عنده إدريس وأصدقاؤه. هو عبدالرزاق غنيمة، يبلغ من العمر ٢٨ سنة أيضاً. رحل من الدار البيضاء قبل إدريس بشهر بحجة الذهاب للسعودية لجمع قدر أكبر من المال. وفضلاً عن ذلك، من هناك اتصل بعائلته في شهر أغسطس عام ٢٠٠٦م ليطمئنها. غير أنه منذ ذلك الحين، اختفى عن الوجود، إلى اليوم الذي اتصل فيه أجنبي يتكلم بلكنه شرق أوسطية بأخي عبدالرزاق ليقول له بأن عبدالرزاق "استشهد" في العراق. وكشفت لنا شهادات متطابقة أن "مقاتلين" آخرين غادروا حي ألفه متجهين إلى العراق كانوا يجتمعون عند الحلاق. ولكن هذا الحي لم يكن الحي الوحيد الذي يعد مأوي "لمقاتلين" مغربيين ذهبوا للعراق. وفي حي سيدي معروف (وهنا أيضاً ليس هذا الحي من الأحياء الفقيرة)، جرب محمد سكوت البالغ من العمر ٣٠ سنة، متزوج وأب لطفلين المغامرة السيئة نفسها. وإذا عبدالرزاق عبر عن طريق السعودية وإدريس عن طريق تركيا، فقد عبر هو عن طريق ليبيا".

ومجمل القول، وبعد التحقق من البيانات والمصادر: إن ملف سنجار يشبه كثيراً ملفاً أمنياً "مبتورا"، قد يكون ملف شرطة الحدود العراقية، غير أنه ملف "قديم" (قبل عام ٢٠٠٧م) و"منقح" "مما يفسر عدم وجود تلميح لبعض البلدان"، و "محسَن" "فيما يخص الرحلة والمبالغ المالية".

يبدو هذا الملف نتاجا لعملية إعلامية منظمة تنظيماً ماهراً لأنها ترتكز على بيانات حقيقية في الأصل، غير أنه تم التلاعب بها لغايات سياسية واستراتيجية. خاصة وأننا نعرف أن الأمريكيين ينوون إنشاء قيادة مركزية في أفريقيا لمحاربة فرع القاعدة في المغرب العربي الاسلامي الذي هاجم- منذ إنشائه - المصالح النفطية الأمريكية في

الجزائر مستهدفاً فرعا من شركة هاليبرتون. لكن دول المنطقة رفضت جميعها استقبال هذه القيادة، خشية تأجيج السخط الشعبي على الأنظمة القائمة. كما أن هذه الدعاية تأتي في الوقت المناسب لتبين حجم التحديات في شمال أفريقيا ولتقدم حجة إضافية للأمريكيين في مفاوضاتهم مع حكومات المنطقة، خصوصاً وقد أصبح من المسَلم به اليوم أن القاعدة في المغرب العربي استفادت استفادة كبيرة من دعم القاعدة في العراق.

الترجمة باعتبارها سلاح حرب

تمت ترجمة ملف سنجار ليخدم بصورة رئيسة الاستراتيجية الأمريكية فيما تسميه إدارة بوش "الشرق الأوسط الكبير". حيث تم تصوير الترجمة على أنها أداة حرب تقود إلى تمييز ثلاثة أنماط من الخطاب المتلاعب به: البلاغة السياسية، والدعاية العسكرية، والتغطية الإعلامية.و بالتالي ينبغي تحليل أفعال اللغة والترجمة التي تشكل أرضا مناسبة للحرب أو بصورة أدق تحليل دور الترجمات السيئة المتعمدة كظروف مسبقة للحرب.

إن اللغة الحربية المتلاعب بها تبقى مفتوحة للتصور، لأنها محددة في ضوابطها وفي مضمونها وفي أهدافها. حسب رأي kant الذي يرى الحرب على أنها تعبير القوى النفسية المتضاربة، ويمكننا أن نرى الترجمة على أنها تعبير لقوى فكرية تحارب لكي تهيمن. غير أن هذه الحرب تخضع لطقوس اجتماعية وثقافية للكلام المسرود والمُعد.

يمكن رصد ثلاث صور للترجمة الهدامة في الصراع العراقي: أولاً يترجم الثوار باستمرار بياناتهم موجهة لمحاربيهم ومؤيديهم السنة في شمال العراق خاصة، ومن ثم، يترجمون للعربية المقالات الرئيسة للصحافة الأمريكية التي تقوم بتحليل الوضع

في بلدهم، وأخيراً، يترجمون للغة الإنجليزية مواقعهم على الانترنت ووثائقهم الدعائية، خاصة التي تكون عبارة عن وثائق فيديو مترجمة ترجمة مرئية.

بذلك، تظهر الترجمة على أنها تعبير، من خلال وسائل أخرى، لغة حربية بكتائب علاماتها اللغوية المسلحة للمعركة الفكرية والسياسية. غير أنه ينبغي تحليل أمثلة من الفريقين لإدراك بعد أفعال اللغة القذائفية، والتي تعني جميعها شيئا واحدا "القتل": "قبضنا عليه"، "سوف نستأصل خلايا التمرد"، و "وسوف ننظف بغداد"إلخ. وبإمكاننا إضافة العديد من الأمثلة لأفعال اللغة ومقابلاتها التي تنم عن بغض وكراهية.

بينت حرب العراق بكل وضوح أن الترجمة - وبصورة دقيقة الترجمة السيئة أو الترجمة الموجهة- قد أضحت أداة دعائية وجزءا من الترسانة التقليدية لدعاة الحرب ومروجي الحرب النفسية.

وعلى ضوء الأمثلة المتاحة، فإن الأمر يتعلق بـ"فن جديد للحرب" ضروري لإنجاز استراتيجيات وتكتيكات للحرب التقليدية. وإذا كنا نريد محاكاة جملة Carl von clauswitz الشهيرة، بصورة ساخرة فإن ذلك بإمكاننا بشكل أكيد، أسوة بـ فوكو الذي عكس معنى المثل[٢].إن الترجمة أضحت اليوم مكملة لمسيرة الحرب بوسائل أخرى، لغوية وفكرية على سبيل المثال.

وهناك حالة مفيدة تجدر الإشارة إليها: "المنطقة الخضراء" تطلق على الجزء المحاط إحاطة كبيرة أمنياً في العاصمة العراقية منذ التدخل الأمريكي. بصورة دقيقة، تُرجمت هذه التسمية حرفياً إلى العربية بـ "المنطقة الخضراء" غير أنه على النقيض في

---

[٢] كتب clauswitz: "أن الحرب هي استمرار للسياسة من خلال وسائل أخرى»، غير أن فوكو عكس هذه الجملة: "إن السياسة هي استمرار للحرب من خلال وسائل أخرى»، مذكور في محاضرات أكاديمية فرنسا عام ١٩٧٦م. المؤلف

عقول المحاربين المتشددين، المجاهدين الذين يسعون وراء الشهادة، كان اللون الأخضر يرمز في الثقافة الاسلامية كعلامة إلهية لكي يضحي الشخص بنفسه محاولاً الدخول على متن سيارات معبئة بالقنابل المتفجرة في هذه المنطقة الخضراء المفترض أنها تؤدي بمن قاموا بالانفجارات الانتحارية إلى الجنة.

غير أن هذه المنطقة الخضراء هي أيضاً الجزء من المدينة الذي يكون به أكبر قدر من الترجمة. بسبب غياب الأمن الذي يسود العاصمة العراقية والأخطار التي يتعرض لها المترجمون، فهم محجوزون في هذه المنطقة حيث يعيشون ويعملون بها يومياً، فهم بكل تأكيد معزولون عن العالم ولكنهم في أمن نسبي. إذن، هي أيضاً "منطقة ترجمة".

وهذه التسمية تعود أخيراً للحد الفاصل لجاليتين من المتحدثين، الثوار والمترجمين الذين يشتركون بقناة تواصل لغوية مشتركة غير أن لهم هدفا مختلفا اختلافاً جذرياً. تتيح فكرة الحدود الفكرية بتقريب "هذه المنطقة الخضراء" في خيال العراقيين وعلى العكس في الاستخدام الأمريكي.

وتحدد الحدود الفكرية الداخلية مناطق الترجمة واستراتيجيات التواصل المختلفة.

اللغة الحربية و وهم الحوار

في ظل لهفتهم على تعريف الحرب الحديثة، بزعمهم أنها وقائية، نسى التبع الواقعيون الجدد لـClausewitz تطويرات Kant للسلام المستمر وللحرب على أنها تعبير للقوى النفسية.فعولواعلى نماذج فكرية تقوم على أساس عقيدة القوة ونظرية الهيمنة والتي تنزل بذلك من قيمة الدبلوماسية إلى أنها بلاغة لا أكثر دون أن يكون لها تأثير

على الواقع. غير أن حرب العراق أتت لتذكر بقسوة غريبة بالدور الأساسي الذي تضطلع به اللغة في العلاقات بين الأفراد والعلاقات الدولية.

قادت المحاربة بلا هوادة في إطار حرب توصف بأنها"غير متكافئة" إلى ظهور لغات حربية مختلفة، تعبر عن نفسها في خطابات متضاربة جذرياً. غير أن العدوين كانا مدينين حتى في إعلان عزمهما على كسب الحرب، كلا في لغته وحسب ثقافته.

منذ عام ٢٠٠٣م، لم تكن اللغة الحربية أبداً بمثل هذا الازدهار. عند جزء كبير من الناس، يُنظر للحرب بعد ذلك على أنها لغة القوة والدبلوماسية، مثل فعل لغة صاروخي. والقوة العظمى الأمريكية بأحادية لغتها وفكرها الأحادي هزت ميزان القوى التقليدية على الساحة الدولية.

ونتذكر غطرسة وزيرة الخارجية الأمريكية وتعاليها عند ردها على أسئلة الصحافيين الألمانيين: "لا تفهمون الإنجليزية، أم ماذا؟".

توصف حرب العراق بصورة لغة مشفرة وقابلة للترجمة وفق قواعد محددة. غير أننا ندرك عن كثب عند تحليل الخطابات الملقاة عن الحرب، خصوصاً في الصحف و وسائل الإعلام الأمريكية أن هذه اللغة المشفرة لا يمكن فصلها عن النتائج العملية للحرب في الميدان.

فكلما أضحى "العدو" في كل مكان، توسعت منطقة الصراع لتشمل شبكة الانترنت وحلبة الدعاية الالكترونية، وكذلك تم تعريف الحرب على أنها "حرب متعددة اللغات". إن القيام بشن هذه الحرب بصورة فاعلة يعتمد على القدرة على ترجمة معلومات العدو والتعبير عنها بلغة تخدم النظرة الاستراتيجية للجيوش ولأجهزة الأمن.

والمصطلحات والأرقام تتغير من برقية إلى أخرى ومن فريق إلى فريق آخر، وهذا للأحداث نفسها وللهجمات نفسها وللحوادث نفسها. يتعين على المترجم المتابع اختيار أي رقم لوضعه أمام البرقيتين: هل يضعها أمام رقم السلطات المحلية أم أمام جماعات الثوار، أم أمام رقم القيادة الأمريكية. فالأمر لا يتعلق بالترجمة فحسب، بل باختيار بين وجهين لمعلومة واحدة، بين ترجمتين للتاريخ.

كما يظهر الخطاب الحربي المكتوب من خلال ترجمة بعض المصطلحات التي تتسم باختيارات فكرية تشكل كثيراً من أمثلة التواصل الموجهة. لكن أحياناً يصبح العراق في حالة الحرب غير قابل للترجمة بمفاهيمه الثقافية وتسمياته المحلية لمختلف طوائفه: السنة، والشيعة والبعثيين، والصدريين، إلخ. هذه الكلمات كلها اكتسبت استقلاليتها لصالح هذه الحرب، وتم التلاعب بها وعرفت من جديد واحدة تلو الأخرى، عندما لم يتم التوقف عن ترجمتها أمام تعدد الترجمات وطرق الكتابة.

أحياناً، انقطعت ترجمة مفاهيم أُسيىء استخدامها مثل: الجهاد، وأضحت غامضة بحيث أصبحت كالحقيبة الفكرية غالباً ما تمس لسهولة الرجوع إليها، في حين أنها لا تعني أبداً نفس الشيء، ونادراً ما تحمل نفس الهدف التواصلي.

وتترجم مفاهيم أخرى أقل شيوعاً ولكنها مهمة أيضاً بطريقة هزلية. رأينا المفهوم القانوني لـ دار الإسلام تُرجم بمفهوم غريب "بيت الطاعة"! ناهيك عن توضيح أن المترجم الناطق بالفرنسية الذي ارتكب هذه الغلطة الشنيعة لم يكن يعرف في لغتة الأم الفرق بين "دار" و "بيت"، وأنه يجهل كل شيء عن دراسات الدين وتاريخ المسلمين. وبذلك، كيف بنا أن نتصور إتقانه لدقائق الأمور في اللغة العربية والثقافة العربية.

كما يكون للمفهوم الإسلامي (شورى) ترجمات خاطئة خطأ كبيراً. في حركة نابعة من رغبة صادقة تدل على افتقار لا حدود له لثقافة فكرية، يقترح بعض المترجمين ترجمات خاطئة إن لم نقل محرفة. ويصبح الخلط مفزعاً عندما تكون هذه الكلمة نفسها "شورى" ملحقة بكلمة أخرى مبهمة أيضاً "مجلس" لوصف مؤسسة سياسية من الطراز الأول في العراق وفي أماكن أخرى "مجلس الشورى". بالتأكيد، من غير المقبول ترجمة هذا التعبير بكلمة "برلمان" لأنها ليست برلماناً في أي شيء ولأنه لا يكفي اقتراح ترجمات جمهورية لإقامة الديمقراطية في بلاد تجهل أساسياتها ومبادئها.

هناك فجوة ثقافية ينبغي على الفور رأبها قبل انفجار "الكلمات القنابل" حتى في وجه الذين يستخدمونها بغير وجه حق، ولكن غالباً تكون نابعة من حسن نية. فعلى سبيل المثال، هل يجب استخدام الترجمة "مجاهدين" أو "جهاديين"، علماً بأن الاثنين نسخ حرفي لكلمتين مختلفتين في اللغة العربية "مجاهد و جهادي"؟. فالعرقية تستخدم أحياناً في إخفاء الافتقار للثقافة الفكرية والضمير المهني، إذا لم نقل عدم الكفاءة بكل بساطة.

بعد حقبة الشك، دخلنا حقبة التلاعب. وينبغي أن يتم عن كثب دراسة "المصفاة المخفية" للترجمة للتعرف على النوايا الحسنة والنوايا السيئة للذين يطالبون بـ "اختفاء المترجم". نعرف حق المعرفة بأن هناك قراءة مهيمنة لكل نص ذي طابع سياسي أو ثقافي، وأن الكلام أضحى غاية كفاح أكبر. ولنتذكر ذلك لاحقاً.

تطابقت مناطق الترجمة ومناطق النفوذ العسكري بمجملها وسهّل انتشار الانترنت تداول الوثائق والكتابات بين المناطق على نطاق واسع، ولكن قد يكون هناك ترجمات متعددة لنفس الوثيقة حسب المناطق وتبعاً لقنوات نقل المعلومات. وتتوافق

هذه الترجمات المختلفة مع تفصيل في داخل اللغة التي اختفى فيها تقريباً مفهوم النسخة الأصلية لصالح مفهوم "نصوص متعددة".

أمام هذه الثورة للنصوص، تشكل ترجمة الخبرات المؤلمة في وسائل الاعلام المرئية والمسموعة مشكلة؛ حيث يعتقد الأمريكيون أن الصور والرسوم التوضيحية تكفي لوحدها وأنها تسمح بنقل رسالة عالمية توفر عليهم وجود تواصل شفهي. لكن، بينت خبرة السنوات الأخيرة بأنهم على خطأ أيما خطأ، سواء كان في شأن الصورة المثيرة للسخط لإعدام صدام حسين في يوم عيد الأضحى عند المسلمين في عام ٢٠٠٦م أو في شأن فحصه الطبي الذي أجري على الهواء خلال اعتقاله في عام ٢٠٠٣م، سواء كان في شأن عرضهم صور رأس الزرقاوي وهو ميت، متباهين به وكأنه غنيمة صيد في شهر يونيو عام ٢٠٠٦م أو صور معتقلي غوانتاناموا يترنحون مثل الدمى مسلوبة الإرادة أو أيضاً صور سجناء سجن أبى غريب العراقي العراة بالكامل والمعذبين، ومن باب المفارقة تجعلهم هذه الصور شهداء. وهذه الصور عوضاً عن نقل رسالة للعالم تتسم بالشفافية، فإنها على النقيض من ذلك، تولد مشاعر الحذر وتغرس الشك فيما يتعلق بالتلاعب بالمعلومات، وبذلك فهي تشكك حتى في مصداقية الإجراء.